Journal of Scientific Research in Arts
ISSN 2356-8321 (Print)
ISSN 2356-833X (Online)
https://jssa.journals.ekb.eg/?lang=en

Exegesis theories in the Batini Shiism: the methods and applications on the Holy Quran

Abd al_Rahman, Abd al_Razzaq Muhammad

Faculty of Dar al_Uloum, Cairo university

ar83mail@gmail.com

Article History
Received: 3 November 2024, Revised: 30 November 2024

Accepted: 8 December 2024, Published: 11 February 2024

DOI: 10.21608/jssa.2024.333324.1679

https://jssa.journals.ekb.eg/article254698.html

Volume 25 Issue 8 (2024) Pp.1-22

Abstract:

This paper, titled with "Exegesis theories in the Batini Shi'ism: the methods and applications on the Holy Quran", aims to demonstrate the ways of the Batini systems to extract the interior meanings from the religious texts, and then to represent them as textual evidences for their philosophical doctrines. These branches of Shi'ism are often studied under the topic of "Ghulāt" (lit. exaggerators), the term that is used in the history of Islamic theological sects, especially Shiites, to describe some religious groups ascribe to the Imams (i.e. pontiffs; religious leaders) of Ali's sons and their descendants divine and gnostic characteristics make them more near to be prophets or gods than to be only pious or pure men.

The study here is based on the analysis of three doctrinal systems, that is, Isma'ilis, Nusairis and Druze. It tries, whenever possible, to depend on the original sources which most of them are recently published or still manuscripts, and not yet studied as it should be.

Keywords: **Batinism, exegesis, Isma'ilis, Nusairis, Druze.**

نظريات التأويل في التشيع الباطني: المناهج وتطبيقاتها على القرآن الكريم

د/ عبد الرزاق محمد عبد الرحمن السيد

مدرس – قسم الفلسفة الإسلامية – كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

ar83mail@gmail.com

المستخلص:

يقع التأويل، من حيث هو بحث في الدلالات، عند ملتقى فروع شتى من المعارف الإسلامية، فيشتغل به المناطقة والبلاغيون، والمتكلمون والأصوليون، والفلاسفة والإشراقيون، فبذلك صار من القضايا العامة في تاريخ الفكر الإسلامي. ومع ذلك، فلتاريخ العقائد موضعه الخاص في هذا السياق؛ فعامة الألقاب الدائرة في هذا التاريخ: من النفاة والمثبتة، والصفاتية والمشبهة والمجسمة، والظاهرية والباطنية، إنما تشير إلى موقع أهلها من مشكلة التأويل ومسلكهم في بحثها والنظر فيها.

يحاول هذا البحث تحرير مسالك الشيعة الغلاة في استخراج الباطن من الظاهر، وإبراز ما اصطنعوه من نظريات في ضبط العلاقة بين ظاهر النصوص وما وضعوه من تأويلها، ولا يخفى أن النزعات الباطنية هي أمس المذاهب الدينية احتياجًا إلى أداة التأويل، فعن طريقها يمكن إدراج منازعهم الفكرية في نصوص الشرع، أو التماس شواهد لها في تلك النصوص.

الكلمات المفتاحية: الباطنية، التأويل، الإسماعلية، الدروز.

تمهيد:

ليس التشيُّع مذهبًا واحدًا أو مسلكًا واحدًا في الأصول أو الفروع، وإن كان يجمع فُرُوعه كلَّها استيلاءُ مفهوم الإمامة على النفوس، ثم سعي من شيوخه في بيان استيلائه أيضًا على النصوص، والقرآن يكاد يكون خلوًا من حديث الإمامة، بما لا يناسب مقامها في الدين؛ وهذا ما فتح سبيلًا واسعة إلى إقحامها عليه بالتأويل.

ويبلغ الأمر بطائفة من التفاسير الشيعية أن تجعل القرآن كله كلامًا في الإمامة، وأوليائها وأضدادها، وما أعد لأولئك وهؤلاء، وفي هذا السياق الخاص يعاد بناء عامة التصورات الدينية عن العرش والكرسي، والقلم واللوح، والسماوات والأرضين، والملائكة والشياطين، وعن الأنبياء، ودعواتهم وأقوامهم، وخصومهم وأضدادهم، وعن الجنة والنار، وعن أحكام الشريعة من الصلاة والزكاة والصوم والحج، وما نشره شتروطمان من تفسير ضياء الدين السليماني، الداعي الإسماعيلي المتأخر، المسمَّى: "مزاج التسنيم"، هو مثالٌ حَسَنٌ لهذا الضرب من التأويل الباطني.

لا يخفى أن العقبة في سبيل هذا المسلك ستكون ضبط العلاقة بين ظاهر الكلام وتأويله، وقد استراح الغلاة من تحرير قانونٍ للباطن فوَكَلوا أمر معرفته إلى المعصُومين؛ ومن أجل هذا نظر مخالفوهم إلى تفسيراتهم للشرع على أنها ضربٌ من العبث، وأنها هذر لا يقبل المباحثة فيه على طريقةٍ علميَّةٍ، ويُرْوَى عن الشعبيِّ (ت: ١٠٠ هـ) قديمًا أنه التمس لها شبهًا طريفًا، وهو أنَّ رجلًا سأله في فِنَاء الكعبة عن بيتٍ زعم أن بني تميم يغلطون فيه فيجعلونه في رجالٍ منهم، وهو قولُ القائل:

بيتًا زُرَارةُ مُحْتَبٍ بِفِنائِهِ ومُجَاشِعٌ وأَبُو الفَوَارِسِ نَهْشَلُ

قال الشعبي: "وما عندك أنت فيه؟"، قال: "البيتُ هو هذا البيتُ"، وأشار بيده إلى الكعبة، "وزُرَارة الحجر زرّر حول البيت"، فقلت: "فمُجَاشع؟"، قال: "زمزم جشعت بالماء"، قلت: "فأبو الفوارس؟"، قال: "هو أبو قُبَيْسٍ جبل مكة"، قلت: "فنهشل؟"، ففكَّر فيه طويلًا ثم قال: "أصبتُه!، هو مصباح الكعبة، طويلٌ أسودُ وهو النهشلُ!"[1]، فكان الشعبيُّ يقولُ: ما شبَّهتُ تأويلَ الروافضِ في القرآن إلا بتأويل هذا الرجل!، وهذا وإن خرج مخرج التهكُّم لم يبتعد كلَّ البُعْدِ عن نمط تأويلات الغلاة.

ويمكن، على كل حالٍ، التمييز بين ثلاث صُوَرٍ من التأويل الذي ظهر في المجامع الشيعية: نظرية المثل والممثول التي صاغها دعاة الإسماعيلية، ونظرية التشخيص التي لم تزل شائعة عند قدماء الغلاة حتى فلسفها الدعاة النصيريون المتأخرون، ثم مفهوم النقض الذي يشير إليه محررو رسائل الحكمة للموحدين الدروز، ويعبرون عنه بـ"المسلك الثالث"، وقد أعمل هؤلاء جميعًا نظرياتهم في أحكام الشريعة ونصوص القرآن والحديث، ما يتعلق بها بالاعتقاد وما ليس كذلك من عموم ألفاظ اللغة.

---

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د. ت.، جـ٢ ص٢٢٣-٢٢٤، وسيذكر الخبر مرة أخرى في جـ٧ ص١٦٠ منسوبًا إلى "بعض العلماء"، وهو عند ابن قتيبة في: تأويل مختلف الحديث، القاهرة، مطبعة كردستان العلمية، ١٣٢٦هـ، ص٨٦-٨٧، منسوبًا إلى "بعض أهل الأدب"، والبيت للفرزدق في ديوانه، ط. كرم البستاني، بيروت، ١٩٨٤م، جـ٢ ص١٥٥

المطلب الأول – نظرية الأمثال والممثولات

١- المفهوم:

تأخذ الفلسفة الدينية الإسماعيلي بمبدأ "الزوجية" أو "الازدواج" العام في عموم مراتب الوجود: فالشهادة والغيب كالظاهر والباطن، كالعقل والنفس، كالروح والجسم، كالقلم واللوح، كالتنزيل والتأويل- كلها مظاهر أو مجالٍ لهذه التثنية الوجودية الشاملة، ومن هذه المظاهر كذلك مظهر الأمثال والممثولات، فما في الوجود من شيء ظاهر للحس إلا هو في حقيقته رمز عن "ممثول" باطن"، يستوي في ذلك موجودات العالم الطبيعي أو ظواهر التنزيل أو تكاليف الشريعة؛ وعلى هذا كان جوهر المعرفة، على الحقيقة، هو كشف "المعادل الباطن"، الممثول، للشرائع الدينية، ونصوص التنزيل، والحروف، والأعداد، والوقوف على التناظر الوجودي القائم بين الإنسان والعالم، فالإنسان بمنزلة عالم صغير، والعالم بمنزلة إنسان كبير.

وليس شيءٌ في الإنسان من جسمه ونفسه وروحه وسائر أجزائه ومداركه وقواه إلا له نظيرٌ وجوديٌّ في العالم، وكذلك ليست مراتب الأنبياء والأوصياء والأئمة وسائر الحُجَج والدعاة إلا تعبيرًا عن مراتب الموجودات في تنزلها، بطريق الفيض أو الصُّدُور، من "واجب الوجود"، وتناول هذه "المُطابَقات" بالشرح والبَيَان بحثٌ مألوفٌ في التراث الفلسفيّ الإسماعيليّ.

وهذا النهج في الجمع بين الظاهر والباطن هو ما جعل الفلسفة الإسماعيلية أرزن وأقرب إلى الاعتدال من سائر منازع الغلو التي أهدرت ظاهر الدلالات الشرعية وما قد تحمله من التكاليف، واستغنت بـ"المعرفة"، معرفة الباطن، عن "العمل" بها، ونظرت إليها نظرتها إلى عقوبةٍ يشقى بها من لم تهذبه المعارف الباطنية.

قال الداعي جعفر بن منصور اليمن (ت: ٣٨٠هـ):

> "إنَّ الله، تبارك وتعالى، لم يخلق شيئًا من أشياء الدنيا، لا دابَّة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه، ولا رطبًا ولا يابسًا من الجماد المنصوب، مثل الجماد والحجارة والأشجار والمعدن من الذهب والفضة والجوهر، وجميع الأشياء ما كبر منها وما صغر، إلَّا وهو مثل مضروب"[٢].

لقد رأى الدعاة الإسماعيليُّون، وهم فلاسفة الشيعة وحكماؤها، أن الزوجية التي بني عليها الوجود لها مظاهر في عموم مراتبه ومجاليه، فكلُّ ظاهرٍ له باطنٌ، والباطن لا يكون باطنًا حتى يستتر بظاهر، وكلاهما معتبر لا يجوز إسقاط حُرْمَته في رُتْبَته، بل ينبّه القاضي النعمان (ت: ٣٦٣هـ)، حجة الفاطميّين في الفقه والقضاء، على أن عامة ضلال من ضلَّ كان من اعتقاد الباطن دون ظاهره، وقال، بعد أن تأول ظواهرَ من قصة آدم، عليه السلام:

"ليس قولنا في هذا وغيره من الباطن نفيًا منا للظاهر، كلَّا؛ إذ إنه "مزدوج"؛ لأن الله تعالى يقول: "**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**" (الذاريات: ٤٩)، لأنه لن يقوم ظاهر إلا بباطن، كما أننا لا نشاهد

---

(٢) انظر– رسالة: "العالم والغلام"، في: أربعة كتب حقانية، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢٧–٢٨

في هذه الدنيا روحًا تقوم في البشريين إلا في جسد، ولا باطن إلا وله ظاهر، ولولا الظاهر لم يقع عليه اسم الباطن"[٣].

ويروى من كلام المعز الفاطمي أنه قال: "من التهاون بالظاهر هلك من هلك ممن عرف الباطن"[٤].

وكذلك يصنع الداعي الكبير علي بن الوليد (ت: ٦١٢هـ) في ردّه الشهير على أبي حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، إذ يُشْهِد الله وملائكته وأنبياءَه وأئمة دينه ومن وَقَفَ على كتابه أنه يَبْرَأ من كلِّ مَنْ يَدِينُ بباطن ما جاء به الرسولُ مع اعتقاد بُطْلان ظاهِره[٥].

وقد صنَّف القاضي النعمان كتاب: "دعائم الإسلام" ليكون أصلًا في معرفة "الظاهر"، وهو الأحكام الفقهية، ثم شفعه بكتاب: "أساس التأويل" ليكون أصلًا في معرفة "الباطن"، أي: ردّ الرموز إلى مرموزاتها، والأمثال إلى ممثولاتها، والتنزيل إلى حقيقة تأويله[٦].

ومما قيل في تفسير مجيء "الرموز" في الكلام النبوي، أن النبي (ص) لمَّا وجد الشهوات الحسية غالبة على أكثر الناس، مركوزة في طبائعهم بحيث لا يمكن نزعها منهم نزعًا كليًّا أتاهم بأمثال مضروبة، وضمنها معاني حكمية محجوبة؛ ليدرجهم فيها تدريج البلغاء لأولادهم، وينقلهم بها نقل الحكماء الهادين لتلامذتهم وأولادهم"[٧].

على أن أمور الشرع، من جهة التأويل، قسمان: ما له ظاهر وباطن، ويجب به العمل والعلم، وهذا أكثر التنزيل، وقسم هو أمثال مضروبة، لا تعويل فيه إلا على ما يؤدي إليه التأويل وحده، ومنه قوله، تعالى، في ناقة صالح: **"لها شرب ولكم شرب يوم معلوم"** (الشعراء: ١٥٥)، وقوله عن يونس: **"فالتقمه الحوت وهو مليم"** (الصافات: ١٤٢)، والشجرة الملعونة في قوله: **"والشجرة الملعونة في القرآن"** (الإسراء: ٦٠)، وما جاء في وقوع الخلاف عند مجيء العلم، وشأن العلم أن يرفع الخلاف، في قوله: **"وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم"** (آل عمران: ١٩).

---

(٣) القاضي النعمان: أساس التأويل، تحقيق عارف تامر، بيروت، ١٩٦٠م، ص٥٩-٦٠، على أنَّ الداعي جعفر بن منصور يشير إلى ثلاث رتب: ظاهر، وباطن، وأبطن، وهو باطن الباطن، انظر: العالم والغلام، مصدر سابق، ص٣٠-٣١

(٤) انظر- القاضي النعمان: المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرين، بيروت، ١٩٩٦م، ص٣٦٣، وانظر- الداعي الكرماني: الرسالة الوضية، تحقيق محمد عيسى الحريري، الكويت، دار القلم، ١٩٨٧م، ص١٢٣

(٥) انظر- ابن الوليد: دامغ الباطل وحتف المناضل، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، ١٩٨٢م، جـ١ ص٤٤

(٦) انظر- القاضي النعمان: أساس التأويل، مصدر سابق، ص٢٧، وانظر أيضًا- غالب، مصطفى: مفاتيح المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢١٧-٢١٨؛ ظهير، إحسان إلهي: الإسماعيلية- تاريخ وعقائد، لاهور، إدارة ترجمان السنة، د. ت.، ص٤٨٣-٤٨٥

(٧) ابن الوليد: جلاء العقول، وزبدة المحصول، في: منتخبات إسماعيلية، تحقيق عادل العوا، دمشق، ١٩٥٨م، ص١٤١-١٤٢

فتلك كلها آيات مقصود بها تأويلها بالقصد الأول، وظاهر لفظها غير مراد، وما عدا هذه الأمور القليلة ينبغي للمؤمن أن يعرف "روح" الظواهر الشرعية، وما أريد بها من الحقائق الباطنة، وهو "علم" ما وراء "العمل"، به يكتمل مطلوب الشرع من المؤمن، من غير أن يخل ظاهر بباطن، أو باطن بظاهر.

* * *

على هذا الوجه، إذًا، يمضي الدعاة في تخريج الشريعة بما يشبه مسلك الصوفية في بيان حقائق العبادات، وما قصد بها من الآداب والمعارف والإشارات:

* **الوضوء**: تنظيف أعضاء من الجسد بالماء إما مسحًا أو غسلًا، **تأويله**: تنظيف الروح بالمعارف الدينية التي تقوم لها مقام الماء للجسد.

* **ستر العورة**: يجب على النائم إذا استيقظ أن يستر عورته، **تأويله**: أنه إذا حصل العبادة العلمية، وفارق نومه، وهو الوقوف عند ظاهرها، وجب عليه أن يستر أسرار الله وأسرار أوليائه.

* **الطهارة من الحدث**: يجب على المستجيب أن ينحِّي عنه الغائط والبول، **تأويله**: أن ينحِّي عنه جميع "الاستفادات السوء" التي اكتسبها من جهة غير وليِّ الله، تعالى.

***الاستجمار**: تطهير موضع النجس بثلاثة أحجار، **تأويله**: إزالة الجهالات والشكوك، وحُسْن طاعة الداعي والحجة والإمام، وولايتهم والبراءة من عدوهم.

ومن ممثولات نظام العالم والأمور الكونية محاورة بين "الغلام" و"العالم"، للداعي جعفر بن منصور، وفيها تكون السماء مثلًا للناطق، والأرض مثلًا للباب أو الوصي، وما فيها من الأنهار والعيون مثلًا للدعاة[٨].

على أن هذه الحاجة إلى التأويل، أو البحث في ممثولات الظواهر، إنما جدَّت في "دور الستر"، بعد أن ضُرِبَت الشرائع حجابًا على الحقائق، وقد كانت من قبلُ مبذولة لطالبها، غير مستترة، في "دور الكشف"[٩].

وهذا التضايُف بين الظاهر والباطن وإن جُعِلَ "تعليميًّا"، أي: سبيل معرفته هو التلقِّي عن الإمام المعصوم، فإنَّ واقع التأويلات الإسماعيلية يُظْهِر أن الدعاة حاولوا الإبقاءَ على شيء من الارتباط بالدلالة الوضعية، بالغًا ما بلغ نصيبه من الوهن أو الضعف، وعلى شيء من معقولية النسبة بين ظاهر الشرع وتأويله، على تفاوت بينهم في ذلك: باعتبار التقدم والتأخر في تاريخ الدعوة، فيلاحظ عند متأخِّريهم النزوع إلى لونٍ قاتم من التأويلات الرمزية، وأيضًا باعتبار مبلغ الداعي من الاشتغال بالعلوم الظاهرة، بما تكسبه من عنايةٍ بضبط التأويل وإن كان باطنيًّا؛ ولعلَّه من أجل هذا كانت تأويلات القاضي النعمان، وهو فقيهٌ مالكيٌّ قبل انتسابه إلى الدعوة الإسماعيلية[١٠]، أكثر نصوعًا وأقربَ تناولًا من مسالك الدعاة المنقطعين للباطن، ومنهم عصريُّه جعفر بن منصور اليَمَن.

فهذا اللون من التأويل، بحُكْمِ استناده إلى محض "تعليم" الإمام، ثم بحُكْمِ أنَّ كثيرًا من ممثولاته هي "أشخاصٌ" معينة من حُدُود الدعوة أو أضدادها (= خصومها)، يصعب ضبطه بقاعدةٍ كليَّة، أو قانون يُمْكِن

---

(٨) انظر: العالم والغلام، في: أربعة كتب حقانية، مصدر سابق، ص٢٨

(٩) انظر– ابن الوليد: تحفة المرتاد، وغصة الأضداد، في: أربعة كتب إسماعيلية، مصدر سابق، ص١٧٤

(١٠) انظر– ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٨م، الترجمة: ٧٦٦، جـ٥ ص٤١٥

أن تردَّ إليه التأويلات، ومع ذلك يوجد في بعض نصوص الدعاة ما يشير إلى وجه استنباط حقائق الأمثال من ظواهرها اللغوية، وأنه ضرب من العدول المجازي تلاحظ فيه "علاقةٌ ما" بين الدلالة الظاهرة والمؤوَّلة.

في رسالة: "العالم والغلام"، للداعي جعفر بن منصور اليمن، يتأول العالم "الماء المالح" بالعلم الظاهر، و"الماء العذب" بالعلم الباطن، عندئذٍ قال الغلام: "كيف صار الماء مثل العلم"؟، قال العالم: "لأن الماء حياة لكل إنسان، وكذلك العلم حياة لكل عالم"[١١].

كذلك يفسِّر الداعي حسن الهندي البهروجي تأويل "الأسماء الحسنى" بأنها الأئمة بأن الأسماء تدل على المسمى المقصود، كذلك الأئمة يدلون على إثبات الباري وتوحيد المعبود، "فهذا وجه التشبيه والعلاقة، عند أهل المعاني والبيان"[١٢].

٢- تطبيقها في التأويل الإسماعيلي:

على أساس من هذه القاعدة في الأمثال والممثولات شرع دعاة الإسماعيلية في تأويل القرآن والحديث، والكشف عما في نصوصهما من دلالات باطنة، وبعض هذه التأويلات يمكن التماس علاقات بلاغية أو بيانية بينها وبين الظواهر، ولكن بعضها كذلك قد يتعذر ذلك فيه إلا على تعسف في الفهم أو تكلف كبير، وقد يصل بعضها إلى التشخيص المحض بحمل المفاهيم على أشخاص معينين بأسمائهم.

ومما يمكن التمثيل به، في هذا السياق، تتبع التأويلات الإسماعيلية لكلمتين من التنزيل، وهما: "الجبل" و"النار"، وقد تكرر ورودهما في التنزيل، وتنوعت وجوه التأويل الإسماعيلي لهما، وهو ما يساعد على فهم مسلك الطائفة في استخلاص الباطن وأثر اختلاف السياق فيه.

(أ) أما "الجبل"، مفردًا أو جمعًا، فيمكن استقراء ثلاثة ممثولات باطنية له:

- أحدها: الطبائع الأربعة: التراب والماء والهواء والنار، وهي التي تنشأ عنها الأخلاط الأربعة التي تتألف منها البنية الإنسانية في الطب القديم، وهي السوداء والبلغم والدم والصفراء، فكل طبيعة هي "جبل" بالإضافة إلى الخلط الذي يحدث عنها، وهو تأويل الداعي السجستاني لقوله، تعالى: **"قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا"** (البقرة: ٢٦٠)[١٣].

- والثاني: علماء الظاهر، وهو باطن الكلمة في قوله، تعالى: **"قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء"** (هود: ٤٣)، يقول ابن نوح: سألوذ بأحد علماء الظاهر وأعتصم به من "الماء"، وهو هنا ممثول "حجة الأساس"، أي: كبير دعاة الوَصِيِّ في زمانه[١٤].

([١١]) العالم والغلام، مصدر سابق، ص٢٩

([١٢]) كتاب الأزهار، ومجمع الأنوار، في: منتخبات إسماعيلية، مصدر سابق، ص٢٠٠

([١٣]) انظر- السجستاني: كتاب الافتخار، تحقيق إسماعيل بوناوالا، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٢٠٣، وهو كأنه يحمل الجبل هنا على معنى "الجِبِلَّة"

([١٤]) انظر: أساس التأويل، مصدر سابق، ص٨٤؛ الداعي المكرمي: حياة الأحرار وحباء الأحبار، ضمن: "معجم التأويل"، القاهرة، ٢٠٢١م، جـ٢ ص١٠٩٩

- والثالث: مراتب حدود الدعوة، بدءًا من الأئمة إلى عامة المؤمنين، وهو باطن الجبال في قوله، تعالى: **"وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال"** (إبراهيم: ٤٦)، أي: لهم من مكر الشبهات ما تكاد تضطرب له دعاة الحق[١٥]، وهذا المعنى هو الغالب في النصوص الإسماعيلية، وعليه يحمل قوله، تعالى: **"وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا"** (النحل: ٦٨)، أي: الدعاة[١٦]، وقوله: **"ولن تبلغ الجبال طولًا"** (الإسراء: ٣٧)، يعني: لن تبلغ علم الأئمة[١٧]، وقوله: **"ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفًا"** (طه: ١٠٥)، يعني: عن الحجج، وهم الدعاة أصحاب رتبة "الحجة"، و"النسف" هاهنا: اهتزاز قلوبهم وارتياحهم لأمر الله[١٨]، وقوله: **"وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب"** (النمل: ٨٨)، هم، رؤساء المؤمنين تظنهم جلوسًا معك وعلومهم تبلغ السماوات والأرض[١٩].

والتأويلات الثلاثة يمكن أن يلحظ فيها معنى "القوة" التي يقوم عليها أو يعتصم بها غيرها، سواء أكانت محمودة في نفس الأمر أو مذمومة، ويظهر أن هذا هو الجامع بين ظاهر "الجبل" وتأويله.

(ب) وأما النار فيمكن استقراء أربعة ممثولات لها:

- أحدها: النور، وعليه يحمل ما جاء في الخبر عن أبي طالب: "نعلان من نار يغلي منهما رأسه يوم القيامة"، أي: نعلان من نور ترتفع بهما رئاسته عند قيامة القائم[٢٠].

- والثاني: نور التأييد الذي يكون لأولياء الدعوة والقائمين عليها، كما في قصة موسى: **"آنس من جانب الطور نارًا"** (القصص: ٢٩)، يعني: أحسَّ بنور التأييد في نفسه[٢١].

- والثالث: الأضداد، وهم خصوم الدعوة، كما في قوله، تعالى: **"وأولئك أصحاب النار"** (البقرة: ٢١٧) أي: صورة الضد، على تأويل الداعي السليماني[٢٢].

- والرابع: الدعوة الباطلة المضادة لدعوة الحق، كما في قوله، تعالى: **"سيصلى نارًا ذات لهب"** (المسد: ٣)، أي: دعوته التي دعا إليها، واللهب: انتشارها بحيث تلهب من استجاب لها[٢٣].

والنار من مادة النور في اللغة، وهي مجموع نور وحرارة في الطبيعة، فالتأويل هنا يلمح في النار ضياءها إن كانت في سياق محمود، أو أراد الدعاة أن يفهموا منه معنى محمودًا، ويلمح فيها معنى الحرارة

---

(١٥) انظر– الداعي السليماني: مزاج التسنيم، تحقيق ر. شتروطمان، غوتنجن، ط. المجمع العلمي، ١٩٥٥م، ص١٠٨

(١٦) انظر– ابن منصور اليمن: كتاب الكشف، تحقيق ر. شتروطمان، دار الفكر العربي، ١٩٥٢م، ص٢٥

(١٧) مزاج التسنيم، مصدر سابق، ص١٥٩

(١٨) كتاب الكشف، مصدر سابق، ص١٦٩

(١٩) أربعة كتب حقانية، مصدر سابق، ص١١٩

(٢٠) المصدر السابق، ص٨٣

(٢١) انظر: أساس التأويل، مصدر سابق، ص١٩١؛ حياة الأحرار، في: معجم التأويل، مصدر سابق، جـ٢ ص١١٣٦

(٢٢) انظر: مزاج التسنيم، مصدر سابق، ص٩٠

(٢٣) انظر– ابن منصور اليمن: سرائر وأسرار النطقاء، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، ١٩٨٤م، ص٩٥

المحرقة إن كانت في سياق ذم، فتحمل عندئذ على الدعوات الباطلة أو القائمين عليها من خصوم دعوة الحق.

ففي كلا هذين النموذجين يمكن أن يستخلص وجه التأويل، أو المعنى الجامع بين المثال والممثول، فالتأويل وإن كان "باطنيًّا تعليميًّا" لا يخلو من اعتبار معنى ملحوظ بين ظاهر الكلام وباطنه.

المطلب الثاني – نظرية التشخيص

١- مفهوم التشخيص وتاريخه في مجامع الغلاة:

يعني "التشخيص" تنزيل المفاهيم الدينية على أشخاصٍ معيَّنين، يكونون هم المرموز عنهم بتلك المفاهيم، المشار بها إليهم؛ فتخرج بذلك العبادات والقصص وجُمْلة المعاني الشرعية عن حقائقها لتصير كناياتٍ عن "أشخاص"؛ وغاية التكليف، إذًا، هي الوقوفُ على المقصودين بهذه الأحكام: إذ ليست الفرائض إلَّا رجالًا تجب ولايتهم، وليست المناهي إلَّا رجالًا تجبُ البراءة منهم، وليس الدين كله إلا "معرفة رجال" بموالاتهم أو البراءة منهم، ومعرفة الصنفين هي باطن التكاليف، وهي لازمة للمكلف ما لم يصل إلى حقيقتهم، فإذا عرفهم بطل عنه التكليف، وسقطت عنه رسوم الشريعة.

وكذلك خاض الغلاة في "الكونيَّات" الفلسفيَّة، وفصَّلوا مراتب نشوء الموجودات وحدوث بعضِها عن بعض، ثم وضعوا إزاء كل رتبةٍ منها درجة بعض شيوخ الدعوة القائمين بها؛ فصار لكل مرتبةٍ من الآفاق، أو قوة من قوى الأنفس، نظيرٌ هو "رجُل" من الدعاة، على تفاوت مراتبهم.

وما "التجسيمُ" أو "الحُلولُ"، الذي شاع في مجامع الغلاة، إلا لونٌ من "تشخيص" الألوهيَّة نفسها، بأن يصير اسم "الله" نفسُه مصروفًا إلى "الإمام"، أو "كبير الدُّعاة".

و"التشخيص"، بهذا التفسير، أعرقُ منازع الغلو الشيعي من الناحية التاريخية، إذ شاع في مذاهب الغلاة الأولين عند رأس المائة الثانية للهجرة، فقد كان المغيرة بن سعيد البَجَلي يقرأ قوله: "**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى**" (النحل: ٩٠)، فيحمل "العدل" على شخص عليٍّ، و"الإحسان" على شخص فاطمة، و"ذوي القربى" على الحسن والحسين[٢٤]، واتصلت هذه النزعةُ في خلفاء المغيرة المعروفين بالجناحية[٢٥]، ثم ظهر التشخيص في دعوة أبي منصور العِجْلي، المعروف بـ"الكِسْف الساقط"، فكان يزعم أن الجنة رجل وأن النار رجل وأن سائر المحرمات أسماء رجال[٢٦]، وبقي التشخيص دائرًا في مجامع الغلو الشيعي حتى اعتمده أبو الخطاب الأسدي، رأس الخطابية، فأسقط عن أصحابه التكاليف متى عرفوا الإمام واجب الطاعة[٢٧]، وأبو الخطاب من الذين يذكرون بلسان التعظيم في المحفوظ من النصوص التاريخية للعلويين، وهو من جملة سلفهم المعدودين في شهداء الإمامة الذين بذلوا دماءهم في سبيل التصريح

([٢٤]) انظر– الذهبي: ميزان الاعتدال، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، د. ت.، جـــــ٤ ص١٦٠–١٦١؛ العقيلي: الضعفاء الكبير، تحقيق عبد المعطي قلعجي، بيروت، ١٩٨٤م، جـ٤ ص١٧٨

([٢٥]) انظر– البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢٤٦؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان، ٢٠١٣م، جـ٤ ص٤٢٥

([٢٦]) انظر– الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٩م، جـــ١ ص٧٥؛ الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، ١٩٧٦م، جـ١ ص١٧٩

([٢٧]) انظر– القمي: المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، طهران، ١٣٤١، ص٥١–٥٢؛ الملطي: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٣٨–١٣٩

بـ"معنوية" أمير المؤمنين[٢٨].

ومن المعروف أن المذهب النُّصَيْرِيَّ، أو العَلَويَّ، هو الحاوي للمنازع الفِجَّة من شطحات الغلوّ الغليظ، على صورته الأولى البُدَائية العتيقة، التي لم يهذِّبها التحرير الفلسفي أو الضبط العقلي، وهو النموذج الخالص للتأويل بطريق التشخيص. ويتعذَّر فيه استخراج رابط منطقي بين الشخص والمعنى، بل يكون الأمر بجملته موكولًا إلى الإمام، أو إلى ما ينسبه إليه الدعاة من الروايات والمأثورات، ولعلَّ هذا ما عبَّر عنه ابن تيمية في فتواه الشهيرة عن "النصيرية" بأنهم: "ليس لهم حدٌّ محدود فيما يدَّعونه"[٢٩].

إن "قاعدة التشخيص" في المذهب قد افتتحها ابن نُصَيْرٍ (ت: ٢٧٠ هـ) في روايةٍ عزاها إلى جعفر الصادق أنه قال: "كلُّ ما أحلَّه الله وحرَّمه فهو معرفة أشخاصٍ، أوجب الله على العبد معرفتها واتِّباعها، وأشخاصٍ أمر باجتنابها"[٣٠]، ثم حَسَمها أبو عبد الله الخَصِيبيُّ (ت: ٣٤٦ هـ)، الشيخ النصيري الكبير، بقوله: "أمَّا العُقُودُ التي أمر الله بالوفاء بها فهي أنه ما من عملٍ ظاهرٍ إلا وله شخصٌ باطن"[٣١].

وينبِّه الجنان الجنبلاني على أن التنزيل لا يجوز حملُ شيءٍ منه على المجاز أو أنه مثلٌ مضرُوبٌ، فيقول بعد تأويل السبعة الأبحر في قوله تعالى: **"ولو أنما في الأرض من شجرة أقلم والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمت الله"** بأنها العالَم العُلْوي: "فإن قال قائلٌ: هذا مَثَلٌ مضروبٌ على مجاز القول، قُلْنا له: المَجَاز باطلٌ، والله، تعالى، يضرب الأمثال ولا يقولُ إلا الحقَّ؛ فمن قال: إنَّ في الكلام مجازًا فقد كفر"[٣٢].

ومن عجبٍ أن تستميل هذه الوجهة من الفَهْمِ متكلمًا حاذقًا ومؤرِّخًا بصيرًا للفلسفة مثل أبي الفتح الشهرستاني (ت: ٥٤٨ هـ)، ولم تحسم بعدُ مادة الجدل في أن له هوًى شيعيًّا، وأي صورة من التشيع يمكن أن يكون مال إليها أو تأثر بها: أهي الاثنا عشرية كما يوحي به النقل عن مثل العياشي والكليني، أم هي الإسماعيلية كما يؤخذ من مقدمة تفسيره ومن بعض التخريجات الحروفية والفلسفية[٣٣]، أم هي بعض نزعات الغلاة، كما يؤخذ من هذا النصّ الخطير في كلامه على "فاتحة الكتاب" من التفسير المنسوب إليه: "كما أن رحمة الله متشخِّصة بشخصٍ هو النبيُّ، صلى الله عليه وآله، بعينه وشخصه، بدليل قوله، تعالى: **"وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"**، كذلك نعمة الله متشخِّصة بشخصه، عليه وآله السلام، بدليل قوله: **"يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها"**، فرحمة الله رَجُلٌ من الرِّجَال، ونعمة الله شخصٌ على الكمال، والحمد لله

([٢٨]) انظر– رسائل الحكمة العلوية، طبع لبنان، ٢٠٠٦م، رسالة: مجموع الأعياد، جـ٣ ص٢٣٤؛ رسالة: مجمع الأخبار، جـ٨ ص١٤١–١٤٣

([٢٩]) مجموعة الفتاوى، تحقيق عامر الجزار وأنور الباز، دار الوفاء، ط.٣، ٢٠٠٥م، جـ٣٥ ص٩٢ س١

([٣٠]) المثال والصورة، في: "رسائل الحكمة العَلَوية، جـ١ ص٢١١، وانظر كتاب إبراهيم بن شيبة إلى الحسن العسكري يسأله عن قوم يزعمون هذا وينسبونه إلى آبائه الأئمة: رجال الكشي، ط. قم، ١٤٢٧ هـ، رقم ٣٢٤، ص٤٣٠–٤٣١، وفيه أن العسكري كتب في جوابه: "ليس هذا ديننا؛ فاعتزله!"

([٣١]) انظر: كتاب العقود، ضمن: معجم التأويل، مصدر سابق، جـ٢ ص١١٨٦

([٣٢]) انظر: إيضاح المصباح، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، جـ١ ص٢٤٦–٢٤٧

([٣٣]) انظر في احتمال انتسابه إلى التشيع الإسماعيلي ما كتبه دفتري في: معجم التاريخ الإسماعيلي، ترجمة القصير، ط. بيروت، ص١٧٨–١٧٩، مادة: "الشهرستاني"

حامدٌ له على كل حال، والملك لله ملك شديد المحال"[٣٤].

فهذا، كما يظهر، حِجَاجٌ عن مسلك التشخيص الذي اصطنعه الغُلاة منذ المائة الثانية، وسعيٌ في التماس الشواهد له، ولكن الجمع بينه وبين "التفسير" قد يميلُ بمقصود كلامه إلى ما يشبه الممثولات الإسماعيلية، أو وجوه التخصيص القائمة على استصحاب مناسبات الآيات وتعيين المخاطبين بها أول مرة عند نزولها، وقد استكثر بعضُ مفسري الاثني عشرية من هذا المسلك كما صنع القمِّي في تفسيره، وكذلك قد يصلح هذا أن يكون أساسًا استند إليه الغلاة في تعيين "أشخاص" للمفاهيم الشرعية.

٢ـ مظاهر التشخيص في التأويل العلوي:

جمعت النصوص العلوية المحفوظة ميراث نزعات الغلو الأولى، وأدرجتها في بنية مذهب كامل يقوم تأويله الباطني على معنى التشخيص المحض، حتى صنف دعاة المذهب كتبًا كاملة في معرفة الأشخاص: أشخاص السماوات، والأرضين، وما فيهما من الأجرام الصماء والحيوان الحي، وأشخاص شهور السنة وأيام الأسبوع، والفروض الدينية وحقائق الأشخاص المرموز عنهم بها.

وقد سرد الخصيبي في الرسالة "الرستباشية" تشخيص ركعات الصلاة، وتسمية المقصودين بها على الحقيقة، ثم زاد فسرد أشخاص شهور السنة، وسمى الاثني عشر الذين هم حقيقة تلك الشهور[٣٥]:

	الشهر	الشخص
i.	**رمضان**	عبد الله بن عبد المطلب
ii.	**شوال**	الحارث بن عبد المطلب
iii.	**ذو القعدة**	الزبير بن عبد المطلب
iv.	**ذو الحجة**	حمزة بن عبد المطلب
v.	**المحرم**	أبو طالب
vi.	**صفر**	المقوم بن عبد المطلب
vii.	**شهرا ربيع**	حجل والغيداق ابنا عبد المطلب
viii.	**جمادى الأولى**	عبد الكعبة بن عبد المطلب
ix.	**جمادى الآخرة**	إبراهيم ابن رسول الله
x.	**رجب**	الطاهر ابن رسول الله
xi.	**شعبان**	القاسم ابن رسول الله

والجمادات لها أشخاص: فالجبل في نحو قوله، تعالى: **"ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا"** (البقرة: ٢٦٠)، يحمل على أشخاص النقباء والنجباء والمختصين والمخلصين والممتحنين[٣٦]، وهم مراتب المحمودين في عقيدة المذهب، وفي قوله: **"ويوم نسير الجبال"** (الكهف: ٤٧)، الجبال: أشخاص الأبواب،

([٣٤]) مفاتيح الأسرار، نشرة آذرشب، ط. طهران، جـ١ ص١٠٧

([٣٥]) انظر: الرستباشية، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، **جـــ٢ ص**٧٢-٧٣، ص٧٩-٨١، وشهر رمضان أول الشهور عند النصيرية، أو في: "سَنَة الموحدين"، انظر- ميمون الطبراني: مجموع الأعياد، **جـــ٣ ص**٢٣٦-٢٣٧، ثم ص٢٤٢

([٣٦]) فقه الرستباشية، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، جـــ٢ ص١٣٥-١٣٦؛ رسالة البيان، جـــ٢ ص٢٧٦

ينطقون بالقدرة والعلم[٣٧]. و"الحجارة" في قوله: **"ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة"** (البقرة: ٧٤)، هي أشخاص المتصلبين في كفرهم من خصوم الدعوة، أو هي العذاب الواقع بهم[٣٨]. و"البحران" في قوله: **"وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج"** (الفرقان: ٥٣)، "العذب الفرات": ابن نصير شيخ الطائفة، و"الملح الأجاج": إسحاق الأحمر، خصم ابن نصير ودعوته[٣٩].

وللنبات كذلك أشخاص: فقوله، تعالى: **"والتين والزيتون"** (التين: ١) يشير إلى شخصَي الحسن والحسين[٤٠]، و"حب الحصيد" في قوله: **"فأنبتنا به جنات وحب الحصيد"** (ق: ٩)، هو أشخاص المؤمنين بالدعوة[٤١]، وفي قوله: **"ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب"** (النحل: ١١): الزيتون والنخيل والأعناب أشخاص الدرجة الثالثة والرابعة والخامسة من درجات "الممتحنين" من حدود الدعوة[٤٢]. و"اليقطين" في قوله: **"وأنبتنا عليه شجرة من يقطين"** (الصافات: ١٤٦)، إشارة إلى صورة الذات الإلهية[٤٣].

ثم يكون للحيوان أشخاص: ويمكن تتبع أسماء الحيوان في التنزيل وما وضع لها من الأشخاص على هذا النحو:

	الحيوان	موضعه	تشخيصه
١	البقرة	**"إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة"** (البقرة: ٦٧)	فاطر (= فاطمة)، وقيل: أم سلمة، وقيل: الباب[٤٤]
٢	النمل	**"حتى إذا أتوا على واد النمل"** (النمل: ١٨)	مراتب العالم الصغير، وقيل: هم المؤمنون[٤٥]
٣	النحل	**"وأوحى ربك إلى النحل"** (النحل: ٦٨)	المؤمنون[٤٦]
٤	النعجة	**"إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة"** (ص: ٢٣)	الأسماء الإلهية التسعة والتسعون، أو مجموع

(٣٧) مجموع الأعياد، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، جـ٣ ص٢٣٣

(٣٨) العباس، القاضي حسين علي: تفسير اللسان، نسخة خطية خاصة غير مؤرخة، ص٧٠

(٣٩) الدلائل في المسائل، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، جـــ٣ ص١٢٧؛ تفسير اللسان، مصدر سابق، ص١١٢٨-١١٢٩

(٤٠) الدلائل في المسائل، جـ٣ ص١٢٣؛ تفسير اللسان، ص٢٠٤٨

(٤١) الدلائل في المسائل، جـ٣ ص١٤٩؛ تفسير اللسان، ص١٩٥٨

(٤٢) تفسير اللسان، ص٧٨٦-٧٨٧

(٤٣) المصدر السابق، ص١٤٤٣-١٤٤٤

(٤٤) المصدر السابق، ص٦٧-٦٩

(٤٥) انظر- كوبج: الرسالة المصرية، نسخة خطية خاصة مكتوبة في دمشق سنة ١٣٩٤هـــ، ص١٠٤-١٠٥؛ تفسير اللسان، مصدر سابق، ص١١٧٢

(٤٦) إيضاح المصباح، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، جـ١ ص٢٤٧؛ تفسير اللسان، مصدر سابق، ص٨٠٣

			المنبئين والنقباء والأيتام والباب[٤٧]
٥	الأنعام	**"وقالوا هذه أنعام وحرث حجر"** (الأنعام: ١٣٨)	علم الباطن[٤٨]
٦	الناقة	**"هذه ناقة الله لكم آية"** (هود: ٦٤)	إشارة تدل على وجود ذات الباري[٤٩]
٧	الهدهد	**"ما لي لا أرى الهدهد"** (النمل: ٢٠)	شخص الباب[٥٠]

ويلفت النظر أن اللفظ الواحد قد يختلف تعيين "شخصه" بين المحمودين والمذمومين في عقيدة الطائفة، فالشمس والقمر، على سبيل المثال، قد يحملان على شخصي الخليفتين الأول والثاني في قوله، تعالى: **"وسخر لكم الشمس والقمر دائبين"** (إبراهيم: ٣٣)[٥١]، وأما في نحو قوله، تعالى: **"هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا"** (يونس: ٥) فيحملان معًا على شخص عليٍّ وحده: فالشمس باعتبار ظهوره بالنورانية، والقمر باعتبار ظهوره بالبشرية[٥٢]، وفي الدعاة من يجعل القمر شخص "الباب"، وهو سلمان الفارسي[٥٣].

وربما لا يخفى أن بعض هذه "التشخيصات" يلمح فيها دلالة ظاهر الكلمة، فتكون عندئذ أقرب إلى المجاز أو الباطن الإسماعيلي، ولكن كثيرًا منه، مع ذلك، ضرب من التحكم الخالص لا يكاد ينضبط بقانون أو ينبني على معنى معقول.

المطلب الثالث – المسلك الثالث: من التأويل إلى النقض

١- مفهوم النقض في "رسائل الحكمة":

جرى دعاة الدروز المتقدمون على نعت مسلكهم في المسائل الدينية بأنه "المسلك الثالث"، يريدون بهذا أنه يتجاوز "الظاهر"، وهو حظ "المسلمين"، و"الباطن"، وهو حظ "المؤمنين"، إلى رتبة ثالثة هي حظ "الموحدين"، وفيها ينتقض الظاهر والباطن معًا.

ولقد تقدَّم أن الفلسفة الإسماعيلية أقرَّت مبدأ الزوجية العامة في تصور مراتب الوجود، وجعل دعاتها "الظاهر والباطن" مظهرًا معرفيًّا لهذه الزوجية، فالنسبة بينهما "تضايف": فالظاهر ينبئ عن إشارات باطنة، كذلك لا يوصف معنى بأنه "باطن" إلا أن يستتر وراء دلالة ظاهرة، وهذه الزوجية هي ما قصد دعاة الدروز تجاوزها، وعبروا عن مسلكهم بأنه: "نقض"، فليس لرسوم الشريعة ظاهر "مؤوَّل" بمعان

([٤٧]) تفسير اللسان، مصدر سابق، ص١٤٥٧-١٤٥٩

([٤٨]) المصدر السابق، ص٤٤٨، وأيضًا: ٧٨٥

([٤٩]) المصدر السابق، ص٤٨٦-٤٨٧، وأيضًا: ٨٤٥، ١١٥٧

([٥٠]) الدلائل في المسائل، جـ٣ ص١٤٩؛ الرسالة المصرية، ص١٠٥-١٠٦

([٥١]) تفسير اللسان، ص٧٥٩-٧٦٠، وأيضًا: ١٧٥٣

([٥٢]) المصدر السابق، ص٦١٢

([٥٣]) حقائق أسرار الدين، مصدر سابق، جـ٤ ص٥٥؛ تفسير اللسان، ص١٧٤٢-١٧٤٣

باطنة، وإنما هو ظاهر "منقوض"، أي: هو، في نفس الأمر، رمز عن معنى في "عقيدة التوحيد"، ولا اعتبار له في نفسه، ولا تكليف به على "الموحد".

قال إسماعيل التميمي (= صاحب رتبة النفس) في رسالة سمَّاها: "الشمعة"، في بيان "المسلك الثالث": "وقال: "**منها خلقناكم**" (طه: ٥٥): يعني الظاهر، "**وفيها نعيدكم**": يعني الباطن، "**ومنها نخرجكم تارة أخرى**": يعني إخراج الموحدين من الظاهر والباطن، إلى **المسلك الثالث، وهو مسلك التوحيد**"؛ فالناس ثلاثة أصناف: أهل ظاهر يقال لهم: "مسلمون"، وأهل باطن يقال لهم: "مؤمنون"، وأهل قائم الزمان يقال لهم: "موحدون"، ثم ذكر ما يقتضيه هذا المسلك من "النقض"، وأنه يستلزم طرح الظاهر والباطن جميعًا، فقال: "من كان من أهل الباطن تأويليًّا وذكر عن نفسه أنه موحد، فقد كذب وأبطل في قوله"[٥٤].

هذا النقض، إذًا، هو نسخ جملة الشرائع الدينية القائمة، وظهور حقائق المعاني الباطنة فيها، التي أخطأتها سائر الملل وكوشف بها "الموحدون"، وسيظل هذا النقض "خفيًّا" في أدوار الدعوة الأولى، تخاطَبُ به الطائفة، وتعمل به سرًّا فيما بينها، حتى إذا رجع "الحاكم" بعد احتجابه، قمع خصومه، وثأر منهم، ونشر شريعته الباطنة، حينئذ يخرج هذا "النقض" إلى الظهور.

وفي رسالة: "النقض الخفي" من "رسائل الحكمة": "قد سَمِعْتم بأن يصير هذا الباطن المكنون الذي في أيديكم ظاهرًا، والظاهر يتلاشى، ويظهر معنى حقيقيَّة الباطن المَحْض، وهذا وقته وأوانه"[٥٥].

وسنجد أن التأويل الدرزي يضيّق التشخيص النصيري حتى يكاد يحصر الأشخاص في شخص واحد هو الحاكم الفاطمي والذين معه من الدعاة الأولين، وعلى رأسهم حمزة بن علي، المؤسس الحقيقي للدعوة الجديدة، وهو يُبْقِي على الكلمات دلالتها المعنوية، أي: لا يجعلها مجرَّد معرفة شخص، ولكنه يصرف هذه الدلالة إلى أشخاص الدعوة المعدودين من رعيلها الأول: فـ"شهادة التوحيد" معرفتهم، و"الصلاة" صلة القلوب بتوحيد الحاكم بأمره (= بأمر نفسه)، و"الصوم" صيانة القلوب بهذا التوحيد، و"الزكاة" تطهيرها مما سواه، و"الحج" القصد إليه وسُكُون القلوب عنده[٥٦].

٢- "النقض" في التأويل الدرزي:

لعل أول مظاهر النقض، بهذا المعنى، ما ورد في تأويل قوله، تعالى: "**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر**" (العنكبوت: ٤٥)، من حمل الفحشاء والمنكر على أنهما إشارة إلى الشريعتين: شريعة الظاهر وشريعة الباطن[٥٧]، تنبيهًا على أن الحق ليس في واحدة منهما. وعلى أساس من هذا يمضي الدعاة في بيان مفاهيم هذا "المسلك الثالث" واستخراجها من نصوص التنزيل.

فالأرض: أرض الدعوة، كما في قوله، تعالى: "**إنك لن تخرق الأرض**" (الإسراء: ٣٧)، أي: لن تقدر على إبطال دعوة التوحيد، يعني: الدعوة الدرزية[٥٨]. و"**البيت**" في قوله: "**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**" (البقرة: ١٢٧)، هو توحيد الحاكم الفاطمي، والحاكم هو "رب البيت"، وعليه يحمل قوله:

---

(٥٤) رسالة الشمعة، في: رسائل الحكمة للموحدين الدروز، بيروت، ١٩٨٦م، جـ٢ ص٢٧٩-٢٨٠

(٥٥) النقض الخفي، في: رسائل الحكمة، مصدر سابق، جـ١ ص٤٩-٥٠

(٥٦) انظر- المصدر السابق، جـ١ ص٤٩-٥٠، ومواضع متفرقة

(٥٧) المصدر السابق، جـ١ ص٥٦

(٥٨) حقائق ما يظهر قدام مولانا من الهزل، في: رسائل الحكمة، مصدر سابق، جـ١ ص١٠٠

"فليعبدوا رب هذا البيت" (قريش: ٣)[٥٩]، و**"الأنفس"** في قوله: **"ونقص من الأموال والأنفس والثمرات"** (البقرة: ١٥٥)، هي حدود الدعوة، و**"الثمرات"**: فوائد العلم[٦٠]، وكذلك **"الجنة"** في قوله: **"وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض"** (آل عمران: ١٣٣)، هي الدعوة التوحيدية التي هي محل النعيم بالمعرفة الحقيقية[٦١]، وأما **"عذاب النار"** فهو التكاليف الظاهرة، و**"جهنم"**: إمام الضلالة[٦٢].

يؤخذ من هذه النماذج وغيرها أن النقض الدرزي يرجع إلى أصله من الباطن الإسماعيلي، وغاية ما يستقل به دعاة الدروز أمران:

أحدهما: أنهم أسقطوا اعتبار الزوجية الإسماعيلية القائمة على "تضايف" الظاهر والباطن معًا، والأخذ بهما معًا.

والآخر: أنهم خصوا تأويلاتهم بعقيدة المذهب في شخص الحاكم الفاطمي وأشخاص الدعوة في طورها الأول.

فالدلالة الباطنة هي المعول عليها، ولا اعتبار لظاهر اللفظ، ثم هذا الباطن مصروف إلى خصوص رجال الدعوة في ظور نشأتها.

* * *

*** مقارنة عامة:**

مما قد يفيد هاهنا مقارنة هذه المسالك الثلاثة في تأويل موضع واحد من التنزيل، ومن أمثلة ذلك:

(١) الزوجان في قوله: "ومن كل شيء خلقنا زوجين" (البقرة: ٤٩):

أ- التأويل الإسماعيلي: كل شيء في الوجود "مزدوج"، وينشأ عن كل زوجين آثار تكون بمنزلة المواليد من النكاح: كالقلم واللوح، والعقل والنفس، والروح والجسد، والظاهر والباطن، والناطق والأساس[٦٣].

ب- التأويل العلوي: أن الزوجين هما السيد (= الأستاذ) والتلميذ، وعامة ما يرد في التنزيل من ذكر الرجال والنساء، أو الذكور والإناث، فهو محمول على نكاح العلم لا نكاح الجسم، يعني: بث المعرفة الباطنية إلى المستحق لها[٦٤].

جـ التأويل الدرزي: كل رتبة من مراتب الدعاة هي "رجل" بالنسبة إلى ما دونها،

---

(٥٩) النقض الخفي، مصدر سابق، جـ١ ص٦٠-٦١

(٦٠) الرضا والتسليم، في: رسائل الحكمة، جـ٢ ص١٨٠

(٦١) رسالة الزناد، في رسائل الحكمة، جـ١ ص٢٧٢؛ رسالة: كشف الحقائق، جـ١ ص١٣٢

(٦٢) انظر- رسالة: "الغاية والنصيحة"، في: رسائل الحكمة، جـ١ ص٨٦

(٦٣) انظر- الكرماني: الرسالة الوضية، مصدر سابق، ص١١٩؛ النعمان: أساس التأويل، مصدر سابق، ص٥٩-٦٠

(٦٤) انظر: الحاوي في علم الفتاوي، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، جـ٣ ص٤٨؛ الدلائل في المسائل، جـ٣ ص١٢٤-١٢٥

و"امرأة" بالنسبة إلى ما فوقها، فالرجل هو الملقي المفيض للعلم، والمرأة هي المتلقي للعلم عمن فوقه[٦٥].

وهنا يظهر أن التأويل الإسماعيلي ينظر إلى معنى الازدواج في عموم مراتبه، وأما التأويلان العلوي والدرزي فيخصانه بزوجية تلقي المعارف الباطنية، فينحصر الزوجان في معنى الأستاذ والتلميذ.

(٢) السلسلة في قوله: **"ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه"** (الحاقة: ٣٢):

أ- التأويل الإسماعيلي: دركات العذاب سبع، وفي كل دركة سبعون قميصًا ملعونًا يتقصمه مخالفو الأئمة[٦٦].

ب- التأويل العلوي: السلسلة هي أجناس المسوخيات التي ينقلب إليها المعذبون: من صورة الجمل إلى صورة دويبة تسلك في ثقب الإبرة[٦٧].

جـ- التأويل الدرزي: السلسلة هي مراتب دعوة التوحيد (= الدعوة الدرزية)، وجملتها سبعون رجلًا، شبهها بالسلسلة لكونها منتظمة متصل بعضها ببعض[٦٨].

وفي هذا المثال يظهر تأثير التأويل الإسماعيلي، فيأخذ به التأويل العلوي مع صبغه بعقيدة التناسخ في الهيئات الخسيسة أو الصور المستشنعة على سبيل العقوبة، وكذلك يظهر أن التأويل الدرزي محمول على جزاء من يخالف سلسلة الحدود؛ فتكون مراتب العذاب على نسبة مراتب الدعوة.

(٣) الأسماء الحسنى في قوله: **"ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها"** (الأعراف: ١٨٠):

أ- التأويل الإسماعيلي: الأسماء الحسنى هي حدود الدعوة من الأئمة والحجج، وقيل لهم "أسماء" لكون الاسم يدل على المسمى، وهم كذلك يدلون على الله[٦٩].

ب- التأويل العلوي: هي أشخاص المجالي الإلهية في أطوار الدعوة المعبر عنها بـ"القِبَاب"، وهم في القُبَّة المحمدية أشخاص: محمد وفاطر (= فاطمة) والحسن والحسين ومحسن[٧٠].

جـ- التأويل الدرزي: تسعة وتسعون داعيًا لإمام دعوة التوحيد[٧١].

وهذا، كسابقه، مثال على عمق تأثير الآراء الإسماعيلية في منازع الغلوِّ الباطني، فيكاد التأويل هاهنا أن يكون واحدًا بينهم جميعًا، مع ما هو مفهوم من اختلاف حدود الدعوة بين المذاهب، بحسب ما يأخذ به كل فريق من مساق الإمامة والقائمين عليها في تاريخ الدعوة.

---

(٦٥) انظر: ميثاق النساء، في: رسائل الحكمة للموحدين الدروز، جـ١ ص٦٩

(٦٦) انظر- الداعي المكرمي: حياة الأحرار، ضمن: معجم التأويل، مصدر سابق، جـ٢ ص١١٢١

(٦٧) حجة العارف، في: رسائل الحكمة العلوية، مصدر سابق، جـــ٤ ص٢٧٩-٢٨٠؛ تفسير اللسان، مصدر سابق، ص١٨٩٠

(٦٨) كشف الحقائق، في: رسائل الحكمة للموحدين الدروز، جـ١ ص١٣٨

(٦٩) انظر: خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق عارف تامر، سورية، ١٩٥٦م، ص٣٦-٣٧؛ منتخبات إسماعيلية، مصدر سابق، ص١٩٩-٢٠٠؛ أربعة كتب إسماعيلية، مصدر سابق، ص٥٠

(٧٠) انظر- الجسري: التوحيد، تحقيق رواء جمال علي، ٢٠١٤م، ص٥٢-٥٣؛ تفسير اللسان، مصدر سابق، ص٥٣٣، ٨٦٢-٨٦٣، ٩٤١

(٧١) البلاغ والنهاية، في: رسائل الحكمة الدرزية، جـ١ ص٧٨؛ رسالة: تقليد المقتنى، جـ٢ ص٢١٥-٢١٦

نتائج البحث

انتهى البحث إلى نتائج:

١- أن مصطلح "الباطنية" أو "الغلاة" كلاهما يشير إلى نزعة عامة لا إلى مذهب واحد في معالجة مشكلة التأويل في مستواها النظري أو فيما يتعلق بتكاليف الشريعة.

٢- أن الفكر الإسماعيلي الذي يكاد يرادف مفهوم "الباطنية" في تاريخ العقائد يبدو أقرب مسالك الغلاة إلى اعتبار الظاهر ولزوم التكاليف، وأقربها كذلك إلى تحرير نمط فلسفي على نصيب من الإحكام والتقعيد.

٣- أن النزعات المبددة لقدماء الغلاة في المائتين الأولى والثانية قد بقيت محفوظة في التراث الديني العلوي، على ما تشهد به نصوصه التاريخية.

٤- التأويل الديني الدرزي هو كالدعوة الدرزية نفسها مشتق من الفلسفة الإسماعيلية، ويرجع إلى تأويلات الدعاة الإسماعيليين، ولا يكاد يمتاز إلا بحصر دائرة التأويل حول الحاكم الفاطمي والأولين من رجال الدعوة.

٥- أن التأويلات الباطنية لا تخلو، في كثير من تطبيقاتها، من لمح معنى ما في ظاهر اللفظ يسوّغ الانتقال إلى مجازه الباطن، فلا تنقطع الصلة بين الأمثال وممثولاتها إلا في نزعة التشخيص المحض، وعليها يقوم التأويل العلوي في نظريته العامة.

المصادر والمراجع

أولًا- المراجع العربية والمعرَّبة:

*** البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت: ٤٢٩ هـ):**

- الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م.

*** الجسري، علي بن عيسى (ت: ٣٤٠هـ):**

- رسالة التوحيد (في العقيدة النصيرية)، تحقيق رواء جمال علي، ٢٠١٤م.

*** جعفر الصادق (ت: ١٤٨هـ):**

- الهفت الشريف (منحول)، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، ط. الثانية، ١٩٧٧م.

*** حسين، محمد كامل:**

- طائفة الدروز: تاريخها وعقائدها، القاهرة، ١٩٦٢.

*** الحمادي اليماني، أبو عبد الله محمد بن مالك (ق. ٥هـ):**

- كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، ط. الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

*** الرازي، الداعي أبو حاتم أحمد بن حمدان (ت: ٣٢٢هـ):**

- الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، تحقيق حسين بن فيض الله الهمداني، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط. الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

*** الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت: ٦٠٦هـ):**

- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق علي سامي النشار، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م.

*** السجستاني، الداعي أبو يعقوب إسحاق بن أحمد:**

- كتاب الافتخار، تحقيق إسماعيل قربان حسين بوناوالا، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، ٢٠٠٠م.

*** سليمان أفندي الأذني:**

- الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية، بدون تاريخ.

*** السليماني، الداعي ضياء الدين:**

- تفسير "مزاج التسنيم"، تحقيق ر. شتروطمان، ١٩٥٥م.

*** الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت: ٥٤٨هـ):**

- الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط. البابي الحلبي، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

*** الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله داعي الدعاة (ت: ٤٧٠هـ):**

- المجالس المؤيدية، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس.

- ديوان المؤيد في الدين، تحقيق محمد كامل حسين، القاهرة، دار الكاتب المصري، ١٩٤٩م.

*** الطويل، محمد أمين غالب:**

- تاريخ العلويّين، اللاذقية، مطبعة الترقي، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م.

*** ظهير، إحسان إلهي:**

- الإسماعيلية: تاريخ وعقائد، إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان، د. ت.

*** العانيُّ، منتجب الدين محمد بن حسن (ت: ٤٠٠هـ):**

- ديوان المنتجب العاني، تحقيق هاشم عثمان، بيروت، مؤسسة النور، ط. الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

*** عبدان، الداعي القرمطي:**

- شجرة اليقين، تحقيق عارف تامر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط. الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

*** عثمان الحنفي، أبو محمد بن عبد الله العراقي:**

- الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة، تحقيق بشار قوتلو آي، أنقرة، ١٩٦١م.

*** غالب، مصطفى:**

- مفاتيح المعرفة، بيروت، ١٩٨٢م

*** الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت: ٥٠٥هـ):**

- فضائح الباطنية، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

*** القمي، سعد بن عبد الله الأشعري (نحو ٢٩٩هـ):**

- المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، تهران، ١٣٤١.

*** الكرماني، أحمد حميد الدين (بعد سنة ٤٠٨هـ):**

- الأقوال الذهبية، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، دار محيو للنشر، ط. الأولى، ١٩٧٧م.

- راحة العقل، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، ط. الثانية، ١٩٨٣م.

- الرسالة الوضية في معالم الدين وأصوله، تحقيق محمد عيسى الحريري، الكويت، دار القلم، ط. الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

*** الملطي، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت: ٣٧٧هـ):**

- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٠٠٧م.

*** منصور اليمن، الداعي جعفر (ت: ٣٨٠هـ):**

- سرائر وأسرار النطقاء، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، ط. الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

*** النجار، عبد الله، مدير المعارف بجبل الدروز:**

- مذهب الدروز والتوحيد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٦م.

*** النسفي، أبو مطيع مكحول بن الفضل (ت: ٣١٨هـ):**

- الرد على أهل البدع والأهواء الضالة المضلة، تحقيق ماري برنار في: *Annales Islamologiques 16 (1980), pp. 39-126.*

*** نصر، الشيخ مرسل، رئيس المحكمة الاستئنافية الدرزية العليا:**

- الموحدون (الدروز) في الإسلام، ط. ٢، ١٩٩٧.

*** النعمان، القاضي النعمان بن حيون التميمي (ت: ٣٦٣هـ):**

- أساس التأويل، تحقيق عارف تامر، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٠م.

- افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، ط. الثانية، ١٩٨٦م.

- تأويل الدعائم، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ط. الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

*** النيسابوري، الداعي أحمد بن إبراهيم:**

- إثبات الإمامة، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

*** ابن الوليد، الداعي علي الفاطمي اليماني (ت: ٦١٢هـ):**

- الذخيرة في الحقيقة، تحقيق محمد حسن الأعظمي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧١م.

ثانيًا: مجاميع الرَّسائل:

أ- المجاميع الإسماعيلية:

- أربعة كتب إسماعيلية، تحقيق ر. شتروطمان، دمشق، ط. الأولى، ٢٠٠٦م.

- أربعة كتب حقانية، تحقيق مصطفى غالب، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط. الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- ثلاث رسائل إسماعيلية، تحقيق عارف تامر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط. الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق عارف تامر، دار الإنصاف، سورية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

- منتخبات إسماعيلية، تحقيق عادل العوا، دمشق، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

ب- المجاميع العلوية:

- سلسلة التراث العلوي، رسائل الحكمة العلوية، تحقيق أبي موسى والشيخ موسى، دار لأجل المعرفة، ديار العقل- لبنان، ٢٠٠٦م. (يراعى هنا أن أسماء الناشرين مستعارة، وبيانات النشر غير حقيقية)

- المجموع النصيري، نشره رينيه دوسو *R. Dussaud* في: "تاريخ النصيرية وديانتهم*Histoire et Religion des Nosairîs*"، باريس، ١٩٠٠م.

جـ المجاميع الدرزية:

- رسائل الحكمة للموحدين الدروز، لبنان، ١٩٨٦

- رسالة النقط والدوائر، ومعها "نبذة من شرح البيان في ذكر البدعة ومجرى الزمان"، و"الرسالة الموسومة ببدء الخلق"، و"الرسالة الموسومة بكشف الحقائق"، تحقيق خ. ف. سَيْبُلْد، كرخهاين، ط. الأولى، ١٣١٩هـ/١٩٠٢م.

ثالثًا: المراجع العربية المترجمة إلى الإنجليزية:

* **'Abdan, al- Qirmiti**: the Tree of Certainty, edit. By 'A. Tamer, Beirut, 1982.

* **Baghdadi, Abdul-Qahir**: the Distinguish between (Islamic) sects, edited by M. M. Abdul- Hamid, Beirut, 1995.

* **Hussain, M. K**: the Sect of Druze- Its history and Creeds, Cairo, 1962.

* **Ghalib, M**: the Keys of Knowledge, Beirut, 1982.

* **Ghzali, Abu- Hamid**: Fada'ih al- Batiniah, edit. By A. Badawi, Cairo, 1964.

* **Jisri, Ali b. 'Isa**: the Epistle of Tawhid, edited by R. G. Ali, 2024.

* **Kirmani, Hamid al- Din**:

  - Comfort of Mind, edit. By M. Ghalib, Beirut, 1983.

  - Golden Sayings, edit. By M. Ghalib, Beirut, 1977.

* **Naggar, Abdullah**: the System of Druze and Tawhid, Cairo, 1956.

* **Nasr, Mursal**: Druze In Islam, Beirut, 1977.

* **Razi, Fakhr al- Din**: the Creeds of Muslim and non-Muslim sects, edited by A. S, an- Nashar, Cairo, 1938.

* **Sadiq, Imam Ga'far**: the Sacred Haft, edited by M. Ghalib, Beirut, 1977.

* **Tamimi, an-Nu'man**:

  - the Base of Exegesis, edit. By 'A. Tamer, Beirut, 1960.

- Opening the Da'wa, edit. By F. al- Dashrawi, Tunis, 1986.

* **Taweel, M. A. Gh**: the History of 'Alawis, Latakia, 1924.

* **Yamani, al- Hammadi**: Revealing the Secrets of Batinia, edit. By A. al-Hawali, San'a, 1994.

* **Zahir, I. I.**: Isma'ilsm- history and creeds, Lahore.

رابعًا- المراجع الأجنبية:

* Destani, B, ed. Minorities in the Middle East: Druze Communities 1840–1974, Cambridge, 2006.

* *Friedman, Yaron, The Nuṣayrī-ʿAlawīs : An Introduction to the Religion, History and Identity of the Leading Minority in Syria. Leiden, Boston: Brill, 2010.*

* Lyde, S.: The Asian mystery- Illustrated in the history, religion and present state of the Ansaireeh or Nusairis of Syria, London, 1850